عبد الناصر والأزمة الكردية

د. رجائى فايد

تعتبر المشكلة الكردية من أعقد المشاكل على الإطلاق لأنها مشكلة تعود إلى سنوات طويلة مضت كما أنها مشكلة تتداخل فيها عدة دول: تركيا – إيران – العراق – سوريا.. وكل دولة من هذه الدول تتعارض مصالحها مع مصالح الدول الأخرى وفى إطار ذلك تستخدم بعضها الورقة الكردية للنيل من الدولة الأخرى حتى تتحقق مصالحها لدى تلك الدولة. ومن أشهر الأمثلة على ذلك استخدام إيران الشاه للورقة الكردية فى العراق كى تحقق مطالبها فى اقتسام السيادة على شط العرب إلى أن تحقق لها ذلك فى اتفاقية الجزائر فى ٦ مارس ١٩٧٥م.

وما يهمنا هنا الحالة الكردية العراقية.. فلقد تعاملت كافة النظم والحكومات العراقية مع هذه المشكلة بعدم كياسة، ذلك أن المشكلة كانت فى بدايتها مجرد مطالب كردية عادلة من أجل إعمار المنطقة ورصد المخصصات المالية لها أسوة بباقى مناطق العراق. وتطورت تلك المطالب مع رفض الحكومات المتعاقبة للمطالب الكردية أو إصدار البيانات التى لا تنفذ على أرض الواقع حتى أصبحت هذه المشكلة تهدد الأمن القومى العربى بأسره. ومن هنا ومع اقتراب المشكلة من الرئيس جمال عبد الناصر كان له رأيا بشأنها أزعم أن هذا الرأى لو كان قد أخذ به ونفذ لكانت تلك المسألة قد وجدت طريقها للحل وبالتالى لتجنب العراق ما تعرض له من كوارث أثرت فينا جميعا..

كان رأى عبد الناصر يتلخص فى ضرورة حصول الأكراد على حقوقهم دون أن يؤثر ذلك فى وحدة وسلامة الأراضى العراقية.. فكان من رأيه أن حكما إداريا موسعا للأكراد أو حكما ذاتيا يعتبر حلا معقولا وعقلانيا لهذه المسألة.

وفى ضوء هذا الموقف نجد أن البرلمان الكردستانى فى عام ٢٠٠٠ م يكرم عددا من الشخصيات المهمة الذين يرى أكراد العراق أنهم تفهموا عدالة قضيتهم وكان فى مقدمة هذه الأسماء الرئيس جمال عبد الناصر.. فماذا قدم عبد الناصر لأكراد العراق حتى يتم

تكريم اسمه بعد وفاته بثلاثين عاما؟ ولنحاول أن نقرأ أحداث التاريخ بحثا عن إجابة لهذا السؤال..

لقد حاولت الحركة الكردية منذ النصف الثانى من خمسينيات القرن العشرين تلمس أى طريق يوصلها إلى عبد الناصر..

وكانت البداية فى عام ١٩٥٧م حين التقى وفد كردى ضم جلال طلبانى فى العاصمة السورية دمشق بالعقيد عبد الحميد السراج وهم يعلمون إنه قريب من عبد الناصر وطرح عليه الوفد فكرة العمل المشترك وترتيب لقاء بين الرئيس عبد الناصر والملا مصطفى البارزانى فى موسكو عند زيارة الرئيس لها من أجل الاتفاق فيما بينهما على العلاقة المصرية الكردية والأوضاع فى العراق.. هذا ما طرحوه على العقيد السراج.. والمقصود بالوضع فى العراق حكم نورى السعيد وحلف بغداد والمواجهة المصرية له. بعدها بأيام التقى الوفد بكمال الدين رفعت الذى كان فى زيارة لدمشق وجددوا طلبهم بشأن ترتيب اللقاء فى موسكو وأضافوا إلى هذا الطلب طلبا آخر وهو فتح إذاعة كردية من القاهرة لتكون أول إذاعة كردية فى التاريخ تنطلق من القاهرة. وبالفعل قامت السلطات المصرية بتخصيص عدة ساعات يوميا من الإذاعة المصرية باللغة الكردية لتصبح تلك الإذاعة من العلامات المهمة فى تاريخ الحركة الكردية. ومن الأمور الجديرة بالذكر أن تركيا احتجت لدى السلطات المصرية على هذه الإذاعة وكان رد السلطات المصرية فى صورة سؤال: هل توجد فى تركيا أقلية كردية؟.. وكانت الإجابة التركية وفق نظرية الحكم الطورانية الشوفونية التى تنكر وجود أقليات غير تركية على الأرض التركية.. هنا كان الرد المصرى الحاسم طالما لا يوجد أكراد لديكم فلماذا الاحتجاج؟

وظل أكراد العراق فى محاولتهم للاقتراب من عبد الناصر فأرسلوا إليه برقية تهنئة بمناسبة توقيع ميثاق الوحدة بين مصر وسوريا.

وبعد قيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨م فى العراق وسمح قادتها للملا مصطفى البارزانى بالعودة إلى العراق بعد أن ظل منفيا اختياريا فى الاتحاد السوفيتى منذ أن هرب إليها مع رفاقه عام ١٩٤٧م بعد انهيار جمهورية مهاباد فى إيران مطاردا من جيوش أربع دول هى إيران وتركيا والعراق وبريطانيا. وفى طريق عودته التقى فى القاهرة بالرئيس جمال عبد الناصر وتعتبر الصورة التى تسجل هذا اللقاء من أشهر الصور المنتشرة فى المدن الكردية

كما يعتبر هذا اللقاء من العلامات البارزة فى تاريخ الحركة الكردية.. وعن هذا اللقاء يقول الملا مصطفى البارزانى وكما جاء فى كتاب «البارزانى والحركة التحررية الكردية» لمسعود البارزانى (فى هذا اللقاء ثمن دور الرئيس عبد الناصر فى الدفاع عن بورسعيد مع أبناء الشعب المصرى ضد العدوان الثلاثى). وكان البارزانى ساعة وقوع العدوان الثلاثى على مصر فى منفاه فى الاتحاد السوفيتى. وما أن علم بالعدوان حتى أسرع إلى السفارة المصرية فى موسكو وسجل تطوعه مع رفاقه من أجل صد العدوان. ويستطرد البارزانى قائلا: «وطرحت على الرئيس عبد الناصر مشكلتنا وطلباتنا واستمع إلى باهتمام».. وبعد انتهاء اللقاء أجيب البارزانى إلى طلبه لزيارة مدينة بورسعيد للاطلاع على آثار العدوان.

وبرغم حجم ما كان يحمله عبد الناصر من مشاكل وهموم وتطلعات لأبناء بلده إلا إنه بدأ يهتم بهذه المشكلة مدركا خطورة تداعياتها على الأمن القومى العربى. وإذا تأملنا بعض المواقف المرتبطة بهذه المشكلة لتبين لنا كم كانت لمصر مكانة إقليمية ودولية بارزة يحسب لها ألف حساب.

ففى أوائل عام ١٩٦٣م وكان حزب البعث العربى الاشتراكى مشاركا فى السلطة فى العراق قبل أن ينفرد بها عبد السلام عارف فى أواخر هذا العام. طرح وفد من الحركة الكردية على السلطات الرسمية العراقية فى حينها مطلبهم بالحكم الذاتى وكان رد على صالح السعدى أمين عام حزب البعث حينئذ «إن عبد الناصر سيكسر رقبتنا إذا وافقنا على الحكم الذاتى.. إن البعثيين قسموا العراق لذا توجبت موافقة عبد الناصر أولا على ذلك». (راجع: مجلة الوسط ١٩٩٨/١٢/٧م).. أما أحمد حسن البكر فقد رد بدوره «إننا مستعدون لمنحكم الحكم الذاتى ولكن هل سيسكت عبد الناصر من دون استغلالها ضدنا». وتقرر بعد هذه المواجهة بين الحركة الكردية والسلطات الرسمية والحزبية العراقية أن يرافق جلال طلبانى وفؤاد عارف الوفد الرسمى والشعبى العراقى المسافر للقاهرة بمناسبة احتفالات الوحدة وذكرى قيام الجمهورية العربية المتحدة فى ٢٦ فبراير/ شباط ١٩٦٣م. وعند وصول الوفد للقاهرة طلب جلال طلبانى وفؤاد عارف من المسئولين المصريين ترتيب لقاء منفرد لهما مع الرئيس جمال عبد الناصر الذى ما إن وصلته الرغبة الكردية حتى قام من جانبه باستطلاع رأى بقية أعضاء الوفد العراقى فكان الجواب «أنهم ليسوا موافقين فقط بل طلبوا من الرئيس أن يستمع إليهم بنفس الطريقة التى تستمع فيها إلينا بصدرك الرحب المعروف»

(راجع : د.على كريم سعيد. عراق ٨ شباط من حوار المفاهيم إلى حوار الدم). وبالفعل تم اللقاء وعنه يقول جلال طلبانى «بدأت حديثى بما يلى : سمعت يا سيادة الرئيس هذه النكتة الذى يرددها الشعب المصرى.. النكتة تقول: إن الرئيس كان يمر بسيارته فى أحد شوارع القاهرة فرأى إعلانا على واجهة إحدى دور السينما يقول «ثورة على السفينة بونتي» فاستدعى وزير الإرشاد وأمره أن يصدر بيانا يقول فيه إن الجمهورية العربية المتحدة تقف بكل قواها مع هذه الثورة وإن أى اعتداء عليها هو اعتداء على الجمهورية العربية المتحدة ولن تسمح به.. وهذه النكتة أطلقها الشعب المصرى الذكى اللماح» هكذا قال الطلبانى «لأنه يعلم أن سيادتكم تؤيدون كافة الثورات التى تقوم ضد الطغيان والظلم..

وبالفعل يا سيادة الرئيس جمهوريتكم هكذا واسمح لى يا سيادة الرئيس أن أقول إذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تؤيد كافة الثورات فى كافة أنحاء العالم فمن باب أولى أن تؤيد ثورة شعب شقيق على أرض شقيقة وهو شعب شارك الشعب العربى فى الضراء ولم يشاركه فى السراء. ويستطرد الطلبانى قائلا : «ضحك الرئيس عبد الناصر وقال لى «هذه طريقة جيدة لبدء الحوار».. ويستكمل الطلبانى سرده لأحداث اللقاء فيقول «تكلمت عن مفهومنا للوحدة العربية ووحدة العراق وشرحت له مفهومنا للحكم الذاتى وتولدت لدى قناعة بأن عبد الناصر أخذ انطباعا جيدا. وأتذكر أن الرئيس قال «لا يوجد لدينا نحن القوميين حلولا جاهزة للقضية القومية مثل الشيوعيين.. فالشيوعى عندما تسأله عن القضية القومية يستل كتابا من مكتبته أو يرجع إلى ستالين ويقول إن حلنا للقضية القومية هكذا.. لذا سندرس قضيتكم وسنواصل الحوار معكم فيما بعد»..

بعد ذلك عقد الرئيس لقاء مع أعضاء الوفد العراقى وكلهم من قيادات حزب البعث العربى الاشتراكى ومن رموز الخط القومى فى العراق وأبلغهم ضرورة التعامل معهما.. أى الطلبانى وعارف مع الملا مصطفى البارزانى «بنفس طويل وحكمة وبعد نظر».. ويقول الطلبانى والعهد على «إن عبد الناصر أرسل خطابا لأحد معاونيه يقول فيه لقد قال لى الأكراد إنهم لا يثقون فى أى وعد من الحكومة العراقية إلا إذا ضمنت شخصيا تطبيق هذه الوعود».

بعد فترة بدأت مفاوضات الاتحاد الثلاثى (مصر – العراق – سوريا) وخلالها قدم الطلبانى وكان عضوا فى الوفد العراقى مذكرة بتصور الأكراد عن هذا الاتحاد ومكانة الأكراد

فيــه وجــاء فى المذكرة «إذا كنتم تريدون إقامة اتحــاد جمهوريات فإن مطلبنا أن يكون لنا حكمنا الذاتى.. أما إذا كنتم تريدونها جمهورية عربية واحدة فنحن نريد لو تصبح المنطقة الكردية إقليما رابعا». ويقول السياســى والمفكر القومى جمال الأتاسى «لقد ظل عبد الناصر مع كل ما وقع من تقلبات فى مواقف الآخرين حريصا على أن يظل العراق متماسكا موحدا وظل يسعى بكل إيجابية ليكون هناك وفاق عربى كردى».

وأثناء إعدادى لهذا البحث اتصلت بالأستاذ أمين هويدى أمد الله فى عمره لأننى أعلم من خلال حوار ســابق معه إنه كان قريبا من هذه المســألة عندما كان يشغل منصب السفير المصرى فى بغداد وحاورته فى بعض الأمور التى كان طرفا فيها.. فذكر لى أنه التقى بالملا مصطفى البارزانى عدة مرات ونقل رســائل متبادلــة بينه وبين الرئيس عبد الناصر.. وقال لى إن رأى عبــد الناصــر فى حل هذه المســألة يكمن فى حكم إدارى موســع أو حكم ذاتى وكلفنى بأن أمد الأكراد بقانون الحكم المحلى المصرى للاسترشــاد به.. وفعلت ذلك. وقال أيضــا ذهبت مع أســرتى لعدة أيــام فى جبال المنطقة وبالذات فى منطقة سرســنك بدعوة مــن الحكومة العراقيــة وكانت الأمور فى المنطقة وجبالها بالذات غير مســتقرة وغير آمنة خصوصا للأجنبى.. وجاء إلى الأســتاذ هويدى ليلا بعض أفراد البيشــمركه وقالوا له: أنت فى مأمن ولا تخش شــيئا لأنك الآن فى حمايتنا ولست فى حماية الحكومة العراقية فأنت رجل عبد الناصر.

□□□